العدد: 541 ▫ 12 - 18 أكتوبر 2012
www.alayame.ma

منهن مربيات الأطفال وخادمات المنازل

خادمات فلبينيات وسنغاليات في بيوت مغربية

سحنات سمراء وملامح إفريقية، وقامات قصيرة، بالإضافة إلى لسان موليير ولغة العم سام، كل هذه الأمور أصبحت مألوفة في عدد من البيوت المغربية. خادمات من الفلبين وأخريات من السينغال جمعتهن الحاجة إلى العمل في المغرب، وراء كل منهن قصة طويلة.

إسماعيل التزارني
ismailtazarni@yahoo.fr

الساعة تشير إلى الخامسة مساء. حارس المنزل ينظر في اتجاه المدخل مترقبا قدوم رب العمل في أي لحظة، بينما الخادمة في المطبخ منهمكة في الأشغال، فيما البستاني يتجول بمقصه في حديقة المنزل مشذبا الأشجار. وفي ساحة المنزل يلعب ينيس، الطفل المدلل للأسرة، وتقف بجانبه شابة سمراء بملامح إفريقية، إنها «فيروني» الشابة ذات الثلاثين ربيعا القادمة من السينغال. شابة قوية البنية صارمة الملامح، لا تدوم ابتسامتها إلا ثوان وتختفي. تعمل منذ مدة عند هذه العائلة كمربية لطفلها المدلل.

لماذا تختار هذه الأسرة مربية من السينغال؟ وما الذي يدفع السينغاليات إلى العمل في المغرب؟ وكيف يصلن إلى المغرب؟

رحلة طويلة

ينيس طفل في سنته الثانية استعانت أمه نجيبة بمربية من السينغال لتساعدها على القيام بشؤونه قبل أن يكمل سنته الأولى. هكذا ارتبط بهذه السينغالية أشد ارتباط وأصبح يفهم فرنسيتها بسهولة في الوقت الذي يجد فيه صعوبة في فهم العامية المغربية. فأي قصة تخفي هذه الخادمة الإفريقية وراء ابتسامتها الخاطفة التي لا تدوم سوى لحظات قصيرة كشعاع البرق في الليلة الحالكة؟ نظرت إلى يمينها وإلى يسارها ثم صمتت برهة فقالت: «لا أريد مشاكل، لن أتحدث عن أي شيء..»، لكن بعد أن طمأنها الحارس وأخبرناها بأننا أخذنا الإذن من عند مشغلتها شرعت في سرد قصتها ويداها تداعبان الطفل ينيس، في الحقيقة «فيروني» لا تقوم بشؤون ينيس بل إنها تقوم بشؤون أسرتها في السينغال من خلاله. سبعة أفواه جائعة تنتظرها في السينغال: أب وأم عجوزان وأخت وأربعة إخوة ذكور. تقول بفرنسية سريعة مغلفة بنبرة إفريقية: «أنا محظوظة لأنني وجدت عملا في المغرب أعيل به عائلتي»، ثم تستدرك «أي عمل، بل قل أعمالا، فقد مررت بالعديد من الأعمال قبل أن أصل إلى هنا».

لقد قدمت هذه الخادمة إلى المغرب في صيف 2007بعد أن سمعت الكثير عن المغرب حتى ظنت بأنه جنة على الأرض، لكن كل تصوراتها حول المغرب تبددت لتحل محلها الحقيقة المرة. عملت خلال سنة 2007 كخادمة في أحد البيوت بالعاصمة الإدارية الرباط. لكن هزالة الأجر الذي لا يتجاوز 700 درهم في الشهر وطول ساعات العمل التي تصل إلى أزيد من 16 في اليوم، جعلاها تفكر في تغيير هذا العمل والبحث عن عمل آخر أو على الأقل الاستمرار في نفس العمل لكن تغيير هذه الأسرة أصبح ضرورة حتمية. هكذا خيرت «فيروني» هذه الأسرة بين خيارين: إما أن يرفع الأجر وتعوض عن الساعات الإضافية أو أن تتركهم وتبحث عن عمل لدى أسرة أخرى. إلا أن ربة العمل كان لها رأي آخر. في هذا المقطع من الحكاية توقفت «فيروني» عن الحديث وانقبضت أسارير وجهها ودمعت عيناها وشرعت في الحديث بلغة غير مفهومة، إنها «الولوف»، إحدى اللغات السينغالية المحلية، فربما لم تسعفها الفرنسية للتعبير عن مشاعرها في هذا الجزء من الحكاية. لكنها سرعان ما استأنفت حديثها بلغة موليير. فما الذي جعلها تتشنج بهذا الشكل وتذرف الدموع وهي التي كانت لتوها تبتسم وتداعب طفل مشغلتها؟

«فيروني» لم تخف الجواب كثيرا وسرعان ما بددت حيرتنا. فجواز سفرها وكافة وثائقها الشخصية كانت تحتفظ بها مشغلتها لذلك امتنعت عن تسليمها لها. وبالتالي فإن هي تركت هذا العمل فلن تنعم بغيره لأن وضعيتها في المغرب ستصبح غير قانونية.

هكذا خيرت بين خيارين أحلاهما مر. فآثرت، بل اضطرت إلى البقاء في عملها، لكن ازدادت قساوة مشغلتها، بعد هذا الحادث وازدادت ساعات العمل. كل هذا جعل الخادمة السينغالية تتخذ القرار الذي تراجعت عنه في العديد من المرات. جمعت أغراضها ودون أن يراها أحد غادرت البيت دون رجعة، تقول: «خرجت تائهة لا أعرف أين أذهب بينما جواز سفري بقي عند مشغلتي. فاتجهت صوب العاصمة الاقتصادية عند إحدى صديقاتي من السينغال التي تعمل في أحد محلات بيع الملابس، فأشارت علي بالذهاب إلى السفارة السينغالية، وهو الأمر الذي نفذته دون تردد». لكن السفارة التي كانت تأمل «فيروني» أن تنصفها وتأخذ لها حقها أو على الأقل تعيد لها جواز سفرها لم تفعل شيئا من ذلك، بل إن مسؤولي السفارة رحلوها إلى السينغال لتعود إلى نقطة الصفر. لكنها سرعان ما عادت إلى المغرب في إطار عقد عمل، حيث عملت كخادمة في أحد البيوت لكن هذه المرة في العاصمة الاقتصادية. إلا أنها لم تستمر في هذا العمل طويلا، فطول ساعات العمل وهزالة الأجر جعلاها تهجره، لكنها كانت محظوظة هذه المرة، فربة العمل لم تمتنع عن تسليمها جواز سفرها. هكذا اشتغلت لسنة أخرى في أحد محلات بيع الحلويات. «فرغم أن الأجر كان مرتفعا (2000 درهم في الشهر) مقارنة مع العمل في البيوت إلا أنني كنت أعاني أكثر. كان علي تحمل مصاريف إضافية، مصاريف الأكل والسكن والتنقل. عكس العمل في البيوت الذي أعفى فيه من كل هذه الأمور».

هكذا، وبعملية حسابية بسيطة، وجدت هذه الشابة السينغالية نفسها مضطرة إلى العودة إلى عمل البيوت. وسرعان ما وجدت عملا في حي كاليفورنيا بفيلا فاخرة. كانت في البداية متفائلة كثيرا وكانت تنتظر من رب العمل أن يعطيها أجرا مرتفعا نظرا لحالته المادية، فالعمل في الشقة ليس هو العمل في الفيلا، هكذا كانت تعتقد. لكنها اكتشفت الحقيقة المرة، فالعمل في الفيلا مختلف عن العمل في الشقة، فالأشغال في الأولى كثيرة عكس الثانية لكن الأجر لا يختلف كثيرا.

بعد هذه الرحلة الطويلة التي دامت حوالي خمس سنوات وما تزال مستمرة انتهى المطاف بفيروني بفيلا بشارع عبد الكريم الخطابي، لكن رحلتها هاته عرفت ثلاثة ثوابت: هزالة الأجر، طول ساعات العمل، واحتفاظ المشغل بجواز السفر. لكنها الآن على الأقل وجدت عملا مريحا نسبيا، فهي تحب الأطفال وأكبر عقبة لها أمام ترك هذا العمل هو ينيس الذي تعلقت به كثيرا.

«أعطيها أجرها كاملا نهاية كل شهر وأمتعها بكل حقوقها، سولوها هي تقول ليكم»، الكلام هنا لنجية مشغلة فيروني التي أقنعناها بصعوبة لتجيب عن أسئلتنا. أي حقوق وأي أجر؟ فالخادمة تتقاضى 800 درهم في الشهر بينما الحد الأدنى للأجور هو 2220 درهما، وتعمل لأزيد من 16 ساعة في اليوم بينما عدد ساعات العمل القانونية هو ثمان ساعات في اليوم، ناهيك عن العطلة الأسبوعية التي تحولت عند هذه الخادمة إلى عطلة نصف شهرية. نجية أو لا نجية كما يحلو للمقربين منها مناداتها لها تفسير لكل هذه الأمور! تقول بأنها توفر لخادمتها المأكل والمشرب والسكن، لذلك في نظرها فهي تعوض لها ما تبقى من الأجر بهذه الأمور، فإن هذه الخادمة في نظرها تستفيد من أكثر من 2000 رغم أنها لا تأخذ سوى 800 نقدا والباقي يدخل في ما تستفيد منه إذا أردنا التدقيق أو «الحساب»، حسب رأي نجية. لكن كيف استقدمت هذه الخادمة إلى المغرب؟ ولماذا خادمة سينغالية وليس مغربية؟

قبل الإجابة عن هذين السؤالين نسرد قصة «أسطا».

ساحة محمد الخامس أو ساحة الحمام كما يدعوها البيضاويون مكتظة كعادتها نهاية الأسبوع. هنا ضربنا موعدا مع «حواء» صديقة «أسطا» لترشدنا إلى صديقتها. لكن «حواء» هي الأخرى لها قصص مع العمل في البيوت، شرعت في سرد بعض الشذرات ونحن في طريقنا نحو منطقة باب مراكش للالتقاء بـ «أسطا»، لكنها لم تكن متأثرة كثيرا بما تحكي، فرغم أنها عانت كثيرا إلا أنها تحكي وتضحك بين الفينة والأخرى. فهذه الخادمة التي عملت بثلاثة بيوت استقرت أخيرا عند إحدى الأسر التي تقدرها وتعاملها معاملة حسنة وتمنحها عطلتها الأسبوعية، فرغم أن الأجر هزيل إلا أن الأمور تحسنت. وصلنا إلى باب مراكش وحواء لم تنته بعد من سرد حكايتها مع العمل في البيوت، فهناك العديد من التفاصيل التي مرت عليها سريعا.

شابة نحيفة تجاوزت عقدها الثاني، منهمكة في تصفيف شعر أحد الشبان الذي جلس أمامها على كرسي بلاستيكي صغير. تعمل كمصففة شعر لكن في الشارع العام، فكل من أراد تصفيفة الشعر الإفريقية المعروفة بـ «الراصطا» يقصد «أسطا» التي يبدو أنها مرتاحة في عملها الجديد الذي شرعت فيه منذ حوالي سنة أو أكثر.

«أسطا» عملت في ثلاثة بيوت لكن دون جدوى. فالأعمال كثيرة جدا والأجر هزيل. «أنا الطباخة والمربية والمنظفة وكل شيء»، تقول الشابة السينغالية. «لذلك تركت العمل في البيوت وعملت في أحد محلات بيع الأحذية قبل أن يسرحني رب العمل لأختار في الأخير هذه المهنة». وضع «أسطا» مختلف عن وضع الكثيرات من السينغاليات، فهي بإمكانها أن تختار أي عمل تريد لأن جواز سفرها بحوزتها وليس بحوزة مشغلها، لقد استطاعت أن تسوي وضعيتها القانونية بالمغرب منذ مدة. حتى إن لم يرقها العمل الذي تمارسه فإن بإمكانها أن تغيره لكنها حتما لن تعود إلى العمل في البيوت، هذه هي القناعة التي تشكلت عند «أسطا» بعد العمل في البيوت لأزيد من ثلاث سنوات.

لكن صديقها علق مازحا :« الفتيات محظوظات، فهن على الأقل يجدن عملا في البيوت عكسنا نحن الذكور الذين نجد صعوبة في إيجاد العمل»، فأي حظ هذا؟ أو بصيغة أدق: ما الدافع الذي يجعل مثل هذه الأسر تفضل خادمات سينغاليات في الوقت الذي يعج «الموقف» بالعديد من

طالبات العمل؟

نعود إلى نجية وحكايتها مع «فيروني» وكيف استقدمتها إلى المغرب؟ وإذا كانت «فيروني» موجودة في المغرب قبل أن تعمل عند نجية فكيف استقدمت هذه الأخيرة أخريات عملن عندها قبل «فيروني»؟ إنه السؤال المحرج لنجية التي ابتسمت قبل أن تجيب قائلة: «فيمَ ينفعكم الجواب على هذا السؤال؟»، «استقدمتها عن طريق شخص أعرفه هناك. طلبت منه أن يأتيني بخادمة من السينغال، فلما وجدها تكلفت بمصاريف الطائرة وجواز السفر، ووقعت معها عقدة»، تضيف بنبرة المتيقن «كلشي عندنا بالقانون».

لكن لماذا كل هذا العناء والخادمات المغربيات في العاصمة الاقتصادية بالمئات إن لم تقل بالألوف؟

«اللغة الفرنسية لغة العصر وضرورية لمستقبل أبنائي في المغرب، لذلك قررت تعليمها لأولادي منذ المراحل الأولية. فالسينغاليات يتواصلن بالفرنسية، مما يتيح الفرصة لأبنائي لتعلم لغة موليير»، هذه السيدة التي استلهمت هذه الفكرة من إحدى صديقاتها أصبحت الآن تضرب عصفورين بحجر واحد، خادمة وأستاذة فرنسية بأجر واحد هزيل.

نفس الكلام قالته مريم التي يتقن ابنها يوسف اللغة الفرنسية، بل إنه لا يعرف من العربية والعامية إلا بعض الكلمات ولا يستقيم نطقها على لسانه حتى.

لكن إذا كانت بعض الأسر قد اختارت خادمات من إفريقيا، فإن أسرا أخرى فضلت استقدام خادماتها من آسيا وبالضبط من الفلبين.

لغة بلاد العم سام

الخادمات السينغاليات والخادمات الفلبينيات أصبحن ينافسن المغربيات في المغرب، خصوصا في العاصمتين الإدارية والاقتصادية، لدرجة أصبحت معها رؤية ملامح إفريقية أو آسيوية في بيت من البيوت أمرا مألوفا.

«من خلال هذه الصفحة نوفر لزبنائنا الكرام خدمة مميزة ونادرة بالمغرب، نحن على استعداد لتوفير خادمات من الفلبين (خادمات المنازل – مربيات الأطفال – العناية بكبار السن – ممرضات مقيمات). مقيمات في المنزل من خلال توقيع عقد لمدة سنتين وتأمين صحي كامل وسرعة في الاستقدام لا تتجاوز 15 يوما بعد الموافقة على الطلب بشكل فعلي، للمزيد من المعلومات الرجاء التواصل معنا عبر الأرقام التالية ومن خلال البريد الإلكتروني» هذا مضمون أحد الإعلانات الموجودة في موقع الفايسبوك على الأنترنيت، ويضيف الإعلان: «الخادمة الفلبينية تتوفر على عدد من الخصائص تميزها عن غيرها، ومنها: إجادتها للغة الإنجليزية، تميزها بالجدارة و الجودة في العمل، القدرة على التكيف مع مختلف العادات والتقاليد..».

لكن كيف يعمل أصحاب هذه الصفحة على استقدام عاملات فلبينيات؟ ولماذا فلبينيات بالضبط؟

سارة التي وضع هاتفها على الصفحة قالت بأن الأمر يتعلق بوكالة تشغيل، وصرحت لـ«الأيام» بأن وكالتها توفر الخادمات لزبنائها في ظرف خمسة عشر يوما فقط، بعد أن يدفع الزبون تكاليف التنقل والعقدة بما فيها عمولة الشركة التي تصل إلى 36 ألف درهم. وبعد توقيع العقدة على الزبون أن يدفع 2500 درهم في الشهر. سارة قالت بأن هذا الأجر تقتطع منه عمولة الوكالة كل شهر. لكن كم تبلغ هذه العمولة، هذا هو السؤال الذي امتنعت سارة عن الإجابة عنه، لكنها بالمقابل أكدت أن وكالتها تقوم بمجهود تستحق عليه هذا الأجر، خصوصا أن لها فرعين، فرع في الرباط وفرع في الفلبين. وتضيف بأن الفلبينيات، بالإضافة إلى أشغال البيت، يعلمن الإنجليزية للأبناء.

لكن ماذا تقول العاملات الفلبينيات؟ لم نتمكن من الالتقاء بأي من العاملات اللواتي تستقدمهن هذه الوكالة لكننا بالمقابل التقينا بسيدة في الحي الحسني بالدار البيضاء توفر هي الأخرى خادمات فلبينيات لزبنائها. المرأة التي تجاوزت عقدها الخامس تعرف بين زبنائها ب«الحاجة». المرأة التي استقبلتنا اعتقادا منها أننا نبحث عن عاملة امتنعت عن الإجابة عن أسئلتنا لما اكتشفت أننا نبحث عن المعلومة «كانجيب الخدامات الفلبينيات آه، ولكن كيفاش كنجيبهم شغلي هداك». لكنها اقتنعت بصعوبة بإرشادنا إلى إحدى الخادمات التي جلبتها لإحدى الأسر.

«إزابيث» امرأة تجاوزت عقدها الثالث بخمس سنوات قبلت أن تحكي قصتها لـ «الأيام» لكن شريطة ألا يعلم مشغلها «أخاف أن أطرد من العمل»، هذه هي ذريعتها.

لكن لماذا المغرب؟ هل انعدمت فرص الشغل في آسيا؟ «الأمر لا يتعلق بالمغرب أو غيره، وجدت عملا فسافرت إليه. هذا كل ما في الأمر» تقول ضاحكة. السيدة الفلبينية التي تركت زوجها وابنها ذا الخمس سنوات مضطرة أكدت أنها تعمل وفق عقدة عمل تمتد لسنتين. «إزابيث» لا تعاني من مشقة العمل وهزالة الأجر بقدر ما تعاني من الغربة ولوعة فراق أسرتها الصغيرة. لم تستطع حبس دموعها وهي تحكي لحظة توديع ابنها الوحيد قبل سنة.

بعض ممن التقتهم «الأيام» من الخادمات الأجنبيات، خصوصا السينغاليات منهن يعتبرن المغرب مجرد مرحلة انتقالية نحو الفردوس الأوربي. لذلك فهن يصبرن على المعاناة علهن يجدن طريقة للسفر إلى أوربا التي لا يفصلها عن المغرب سوى 14 كيلومترا. لكنهن في كل الأحوال يحسدن على وضعهن هنا من طرف صديقاتهن اللواتي لم يكتب لهن المجيء إلى المغرب، لأن الأجر الهزيل الذي يتقاضينه في المغرب أجر مقبول إذا تم تحويله إلى العملة السينغالية.

أما الأسر التي تستقدمهن وزميلاتهن الفلبينيات فإنها تضرب عصفورين بحجر واحد، تعليم أبنائها اللغة الفرنسية أو الإنجليزية والقيام بأشغال البيت.

من جهة أخرى فإن مدونة الشغل في المغرب تمنع أن يقوم عامل أجنبي بعمل ما إلا في حالة كان يتقن عملا لا يجيده غيره من العمال المغاربة. لكن هذا النص القانوني لا ينفذ مع العلم أن جل الخادمات الأجنبيات يشتغلن وفق عقدة محددة.